10

فلاديفو ستوك والأزمة في العلاقات الأمريكية السوفييتية

الوصول إلى فلاديفو ستوك

اتجه فورد من سيؤول في 23 ت2 في طريقه إلى فلاديفوستوك. ولما كان الاتحاد السوفييتي لم يعترف بعد بكوريا الجنوبية فقد كان على طائرة الرئاسة أن تحط في طوكيو، حيث التقطنا الربان السوفييتي، وبعد الإجراءات الاحتفالية الرسمية والاستقبال الصاخب في كوريا الجنوبية، بدا الوصول إلى الاتحاد السوفييتي مرتجلاً بعض الشيء وغير ممتع.

حطت طائرة سلاح الجو الأولى (طائرة الرئاسة) في قاعدة عسكرية تبعد50 ميلاً عن فلاديفوستوك. وكانت عاصفة ثلجية شديدة هبت في اليوم السابق، قد أثارت الشكوك إذا ما كنا سنستطيع الهبوط. وعلمنا فيما بعد أن مضيفينا قرروا تغيير خط سيرنا إلى كاباروفسك، وهو اختيار محير لأسباب فنية وسياسية: فنياً لأن اختيار مدينة سيبيرية كهذه لعقد مؤتمر قمة أمر يشوش الذهن، خاصة وأنها تقع على بعد آلاف الأميال من موسكو. وسياسياً أن عقد مؤتمر قمة سوفييتية ـ أمريكية في مدينة قريبة من الحدود الصينية لا بد أن تفسره بيجينغ على أنه بادرة تحالف استفزازي بين قوتين عظميين. ومع أننا كنا نخشى مثل هذا الاحراج فإن الصينيين لم يعتبروا خيار فلاديفوستوك دليل تحسن كبير (انظر فصل 28).

مع الثلج الكثيف الذي كان يغطي مستودعات القاعدة الجوية السوفييتية العسكرية لم يكن من الممكن رؤية شيء عبر الامتداد الأبيض سوى أشكال قليلة سوداء تقف عند حافة مدرج خشبي مسقوف تحول إلى مكان للترحيب بنا، ونظراً للبرد الشديد فقد تغيرت مراسم الاستقبال الرسمية. كان بريجينيف يتحرك بنشاط وانتقلنا معاً بالقطار إلى أوكيانسكايا، وهي منتجع يبعد حوالي عشرة أميال عن فلاديفوستوك.

القطار واسع جداً يعود إلى أيام القياصرة، وقد أحضر لنا الشاي مضيفون يرتدون ملابس شعبية روسية وهم يحملون «سماور» فضياً. كنا مأخوذين بمنظر السهول المغطاة بالثلوج تحيط بها سلسلة من الهضاب غير العالية. وعندما أخبرنا مضيفونا السوفييت أن قمة بعض هذه الهضاب تمثل الحدود مع الصين والتي شهدت صدامات بين القوات الصينية والسوفييتية عام 1969، ساد الرحلة جو من الرهاب

obeikandl.com

تعودت الشعور به في إسرائيل قبل 1967 حيث كان يبدو المرء في كلا الجانبين على مرآى النظر في بعض مناطق الحدود المتداخلة.

أخذنا بريجينيف في نهاية الزيارة في جولة عبر فلاديفوستوك. كانت ما تزال آنذاك مغلقة أمام الأجانب، ولما كان اليوم يوم أحد فقد بدت المدينة ساكنة أكثر مما هي حيوية. كانت تشبه من ناحية الشكل مدينة من مدن أوروبا الوسطى التي تطل على آسيا. ولما كان يسكنها الأوروبيون في الغالب فقد كانت تشبه سان فرانسيسكو كما تشبه قليلاً بعض مدن كوريا واليابان التي كان فورد قد زارهما من وقت قريب. كان الهدف الحقيقي للقياصرة من إنشاء هذه المدينة أن تكون ميناء انطلاقة للإمبراطورية الروسية نحو آسيا. أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي فالخطر أن تتعرض إلى مناطق محاصرة متناثرة.

في القطار كنت أنا والرئيس فورد نجلس في غرفة الطعام حيث جلسنا حول طاولة مغطاة بغطاء أبيض ثقيل. كان بريجينيف ووزير الخارجية أندريه غروميكو، والسفير أناتولي دوبرينين وفيكتور زخاروف، والمترجم السوفييتي، يجلسون في جانب، ويجلس فورد وسفيرنا في الاتحاد السوفييتي وولتر سترسيل وأنا، مع مترجمنا الرسمي أليكس أكالوفسكي البالغ المهارة. كان وجود مترجم أمريكي طقساً من طقوس نيكسون، الذي كان مقتنعاً أن مترجمي وزارة الخارجية يسرّبون محادثاته.

أخيراً التقى فورد وجهاً إلى وجه مع بريجينيف الذي قرأ عنه الكثير. وفي مذكراتي الموجزة عن القمة عرضت التقويم التالي لبريجينيف:

> ليس مؤهلاً كثيراً أساساً، ولا صبر له على التفاصيل، وغالباً ما يكون سيء الاستعداد (إن لم نقل مضللاً). وهو يغطي هذه الصفات بالتكلف بالكلام والسلوك والانحراف عن الموضوع، رغم أنه في قرارة نفسه صارم وخصم عديم الرحمة، ولا يعطي شيئاً من أجل النية الطيبة.
>
> وهو يكون حذراً منك لأنه لا يعرفك، ولأنه أيضاً يكنّ احتراماً جيداً وغريزياً لقوة الولايات المتحدة ولحكومتك.
>
> أفضل طريقة للتعامل معه شرح موقفنا بصراحة وواقعية وأنت تدعه يتفهمه.
>
> قد يرغب بالانفراد بك من أجل حديث ودي، كي يظهر بأنه متمسك بالعلاقات الطيبة، ولكن هناك معاني إضافية للسيادة المشتركة، وهو يحاول، عملياً، أن يختبرك ليرى إذا ما كنت تبدي أي اهتمام في علاقة كهذه والتي تكون عملياً موجهة ضد الصين.
>
> كان فورد قد أظهر عدم شعور بالأمن أثناء التحضير للرحلة، كما أنه لم ير الآن أية حاجة للتخلي عن طبيعته المعتادة لمجرد أنه وجد نفسه في أقصى شرق سيبيريا.

بـدأ بريجينيف المحادثات بطريقة مزاجية وهي أسلـوب بات مألوفاً لدي. علّق على ميل الرئيـس الفنلندي أورهو كيكونين الشديـد لشرب القهوة، التي يكرهها بريجينيف، وعلى ميل الرئيس المصري الراحـل عبد الناصر إلى خلط الدعابة بالسياسة. وكان غروميكو هدف نكات بريجينيف الذي حكى لفورد إحدى الحكايات الطريفة عن سلوك غروميكو.

كانت طبيعة فورد، ولا سيما مع الأشخاص الذين يقابلهم لأول مرة، أن يدير المحادثة حول شيء عملي. وقـد تساءل هنا عـن الطاقة الزراعية للمناطق التي نتجـول فيها. لم يكن بريجينيف مُهيئـاً لهذا السؤال ولـم يكن علـى دراية واسعة بشؤون الزراعة في مناطق الاتحـاد السوفييتي. وبعد حديث عابر عن درجات الحـرارة المناسبـة للزراعة (حيث لا توجـد زراعة واسعة في سيبيريا) دخل فورد فـي الموضوع مباشرة وسأل بريجينيف كيف يرغب أن يباشر المفاوضات وفقاً لجدول الأعمال المتفق عليه في موسكو.

لمـا كان بريجينيـف معتـاداً على أسلـوب نيكسون الموجز فقد تلـكأ قليلاً ثم طرح مـا كان خطط له بوضـوح في بيانه الافتتاحي لجلسة الافتتاح المكتملة. ووفقاً لما أصبح أسلوباً سوفييتياً تقليدياً فقد تناول القضايا الدولية، مثل الحد من التسلح، والشرق الأوسط، ومؤتمر الأمن الأوروبي. وقال بريجينيف:

دعونـا نتحـدث لا كدبلوماسيين بل كبشر. كلانا حارب في الحـرب العالمية الثانية. تلك الحرب كانت لعبة أطفال بالمقارنة مع الحرب النووية.

دخل فورد في الموضوع مباشرة، بصورة عامة، ولو بطريقة روتينية إلى حد ما. أكد على استنتـاج مضيفـه بأن نتائج حرب نووية ستكـون حقاً «شيئاً لا يصـدق»، كما أكد على أن سياسته الخارجية ستكون أساساً استمراراً لسياسة نيكسون.

خطـا بريجينيف خطوة أخرى فـي عرض عام خارج البيان: أرى أننـا تقدمنا بشكل غير صحيـح فـي الاتجاه الخاطئ. نحن لـم نحقق أي تحديد حقيقي، بل كنـا في الواقع ندفع بسبـاق التسلح أكثـر فأكثر. ذلك خطأ. غـداً سوف يقدم لنا العلم ابتـكارات لا نستطيع حتـى أن نتخيلها اليـوم، وأنا لا أعرف إلى أي مدى نستطيـع أن نستمر في بناء ما يسمى بالأمـن. هذا لا يعني أننـي مستعد لمناقشة أرقام أو مستويات، ولكننـي أريد أن أقول إن سبـاق التسلح هذا محفوف بخطر كبير... الناس لايعرفون كل التفاصيل، وإلا أرسلوا بنا إلـى الجحيـم. نحن ننفق المليارات علـى كل هذه الأشياء، مليارات يجـدر بنا أن ننفقها على مصلحة الشعب.

كانـت إشـارة جيدة من عدة وجوه في قلب أزمـة الحرب الباردة: فسباق التسلـح كان غير قابل للحل بـدون معيار للثقـة، ولكن الثغرة الأيديولوجيـة الواسعة كانت من الاتساع بحيـث كان كلا الطرفين يحدد الأمـن من منطلقـات تقنية فحسب، تلك التي أثارت كثيراً من التعقيـدات كحلول، ودفعت بهما إلى الوراء

لحماية برامجها الاستراتيجية الأساسية. من المؤسف أننا لم نكن أحراراً في اكتشاف تأملات بريجينيف والـى أيـن قادته وأنـه سرعان ما أصبح عاجـزاً عن دبلوماسية مبدعـة. وعلى أية حال، فـي القطار عبر سيبيريـا المتجـه إلى أوكيانسكا، شعر فورد أنه لم يقطع هذه المسافـة الشاسعة لمناقشة الفلسفة العامة للحد من التسلح. بعض الاتفاق كان ينبغي أن يتقدم بإجراءات أكثر اندفاعاً:

أنـا مهتم يا سيادة الأمين العام بمعالجتك كرجل دولة لهذه المشكلة وأفكر بأننا نستطيع أن نتكلم بهذا السياق الأوسع في وقت لاحق.

ولكـن أعتقـد أن المهم في هذا الاجتمـاع أن نناقش هذه المسائـل بشروط معينة خطوة فخطـوة. أعتقد أن اقتراحنـا واقتراحكم المقابل يمكـن أن يكونا أساسـاً طيباً من أجل استمرار تراث اتفاق 1972.

لـم تكن ثمـة مـادة للمناقشة حتـى انعقاد الجلسـة المكتملـة. وقد لاحـظ غروميكو أن السيناتـور ولترموندیل قد تخلى عـن طموحاته الرئاسية عام 1976 لأن بريجينيف رفض أن يستقبلـه فـي موسكو. وقد أعاد بريجينيف ذلك إلى أنـه يفضل هنري جاكسون. وقام فورد مستغلاً كراهية السوفييت لجاكسون كنقطة ضغط للقيام بمحاولة أخرى للعودة إلى الموضوع المطروح:

فـي نظامنا الأفراد من أمثـال السيناتور جاكسون لهم الحق في عـدم الموافقة، ولكنني أعتقـد أن الشعـب الأمريكي يريدنا أن نتابع نهجنا الحالـي. إذا كنا نستطيع أن نتفق في فترة 1975 ـ 1976. سوف يكون لدينا فرص أفضل لمتابعة سياستنا حتى 1980.

كان نيكسـون يؤكد دوماً على علاقاته الوثيقـة ببريجينيف، ليس لأن لديه أية أوهام حول أغراض السوفييـت، ولكن كوسيلة لدحر خصومه في الداخل باستعراض الاحترام الذي يلقـاه فـي الخارج. أمـا فورد فقـد كان أكثر حذراً بكثيـر، ولم يشعر بضـرورة أن يسحر الزعماء الأجانب أو بضرورة إبداء مودة لا يشعر بها.

إقامتنـا في أوكيانسكايا لليومين التاليين تحولت إلى مصحة أو عطلة للعاملين (رغم أن بعضـ الساخرين من جانبنا وصفوا المكان بأنه ملجأ للمجانين). كان يتألف من حديقة مبنيـة من الحجر ومحاطة بأكواخ صغيرة مصنوعة من الخشب. أحدهما كان مخصصاً لـي، ورغم أنه لم يكـن أنيقاً إلا أنه كان يحميني من البرد القارصـ الذي لم أشعر بمثله فـي حياتي المدفأة القديمة كانت تقذف بعض الشرر مما يوحي بأن البناء كله قد يشتعل إذا مـا أثار مضيفونا السوفييت. وكان فورد هو الوحيد الذي يقيم في بناء حجري، الأمر الذي أنقذه من القلق.

أول لقاء مكتمل

عقدت الجلسة المكتملة في الحديقة الشتوية لذلك البناء الحجري القديم، التي غطتها الأزهار. وكان دوبرينين قد ذكر أن بريجينيف كان قد أصيب بنوبة مرضية في جناحه الخاص في القطار بعد اللقاء الاستهلالي مع فورد، حيث طلب منه الأطباء تأجيل المفاوضات حتى مساء ذلك اليوم. إذا كان الأمر كذلك فنحن لم نلاحظ أي فتور في طاقته[2].

إنها المرة الوحيدة في عهد رئاسة فورد أنه يمثل موقفاً موحداً لحكومته من اتفاقية «سالت». شليسنجر وأنا وافقنا على مفهوم الأعداد المتساوية لكلا الطرفين، والذي كان التعبير الفني عنه «الحواصل المتساوية». وفي مذكرة كتبتها بوصفي مستشاراً للأمن القومي كنت قد حذرت الرئيس فورد أنه حتى عندما نتوصل إلى اتفاق فإن الهجوم الداخلي على اتفاقية «سالت» سيستمر: المحافظون سيركزون ضغوطهم على تحويل الحواصل المتساوية إلى وزن قذف متساو، قابل للتفاوض فقط بعد البناء (العسكري) الأمريكي الكبير، وهو ما سيعارض بالتأكيد كونغرس ماك غفرن المنتخب حديثاً. وسيعارض الليبراليون مبدأ زيادة القوات الأمريكية المتضمن في اقتراح الحواصل المتساوية. رغم هذه التحذيرات، أوصيت أن نتقدم للأسباب التالية:

(1) – سياسياً، إذا استطعنا أن نحقق اختراقاً في اتفاق «سالت» فهو ضمان ضد تقهقر العلاقة بكاملها، في وقت (آ) نستطيع أن نواجه فيه مجابهة محتملة في الشرق الأوسط و(ب) في فترة ليس من الضروري أن تزداد فيها فعاليتنا التفاوضية بدون زيادات بالغة في الميزانية.

(2) – مع وجود كونغرس جديد، وفترة ما قبل الانتخابات، وفي وجه صعوبات اقتصادية تتعلق بالطاقة والضغوط التضخمية، فإن فرصنا في اعتمادات مناسبة ومستمرة من أجل أنظمة جديدة تزيد على ما هو موجود ليست جيدة جداً، لا سيما إذا بدا الاقتراح أساساً لاتفاق...

(3) – الاتفاقية المتوقعة تتمتع بمزية تنفيذ برنامجي ترايدينت و ب-1، وبذا تتحسن فرص موافقة الكونغرس عليها.

لقد ذهب الحد من التسلح بعيداً عن مقصده الأصلي عندما أصبح وسيلة لقيام برامج استراتيجية جديدة بدلاً من الحد منها.

دعم شليسنجر كان أكثر تذمراً وتعقيداً، ولكن الأساس أنه يؤيد اتفاقية بحواصل متساوية مؤلفة من 2400 منصة إطلاق و1320 صاروخ «ميرف» MIRV. كان هناك توضيحات فنية كافية تقدم منفذاً

لمجابهـة منتقدينا فيما بعد، أمـا بالنسبة للخطة الراهنة، فقد كان لدى فـورد المساندة الضرورية للرد على التهجمات الداخلية.

بـدأت الاجتماعات الرسمية في الساعـة 15.6 مساء. أعاد بريجينيف، الـذي زود ضيوفه بالشطائر والكعـك والشاي، نسخة موجـزة عن عرضه الفلسفي في القطار، ومن ثم اتجهـت المناقشة مباشرة إلى موضوع الحد من التسلح.

الحـوار الناتـج كان أشبه بلعبة «الكابوكـي»(*)، تتصف بأسلوب شبه تقليدي ونتيجـة قدريّة، والفارق الرئيـس هـو أن نفسية الفنانين كانت حذرة، وشعروا بحرية تغييـر الفصل الأخير. كانت النتيجة بطريقة مـا مقررة لأن بريجينيف قد سلـم بمبدأ الحواصل المتساوية في موسكو ولـم يكن من المحتمل أن يجعل الرئيـس يسافـر هذا الطريـق الطويل إلـى فلاديفوستوك مـن أجل أن يجعلـه يُحبط بشـأن مسائل مثل الحواصـل المتساويـة. ومـن ناحيـة ثانية، فإن بريجينيـف قد لا يكون قـادراً على إقناع مكتبـه السياسي بالتنـازلات الضرورية لأننا لم نأت معنا بـأي تعديل على موقفنا. لرؤية كيف يتم اجتياز النتيجة المحتملة مـن خـلال اجتماع قمة، مع تجنـب المخاطر، فإن بعض مناقشات المد والجزر فـي المفاوضات قد تكون مثيرة للاهتمام.

كان جيرالـد فـورد تجربة جديدة بالنسبة إلـى السوفييت ولم يتخذ نهج سابقـه. فنيكسون الذي يملّ مـن التفاصيـل. ولا سيما الجوانب الفنية لاتفاقية سالت. قد يستغرق مع بريجينيف في معالجته الشاملة، حيـث يبدأ ببعض الفرضيـات الاستراتيجية والسياسية العامة، ثم ينتظر حتـى يقدم بريجينيف اقتراحاً محـدداً. عند تلك النقطـة كان نيكسون يترك التفاصيل لغروميكو ولي. أما فـورد فهو على العكس، يدخل في الموضوع مباشرة ويجري الكثير من المناقشات الفنية بنفسه. كانت تنتظره قرارات كبرى، يلاحظها بشيء من الخطر، فيما يتعلق بمستوى الميزانية الدفاعية، وهذه ستتوقف على نجاحات القمة.

التهديـد الضمني كان شيئاً أشبه بالخداع لأن عملية وضـع الميزانية للسنة القادمة، بكافة أغراضها العمليـة، كانت قـد أُنجزت تقريباً، وكان اهتمامنا الأول أن الكونغرس الجديد الذي يهيمن عليه مكفغرن سوف يقتطع مطالبنا، ورفعها كان بمثابة الخيال. كان فورد يؤكد باستمرار على أهمية أن تقوم أية اتفاقية جديـدة علـى أساس «التكافؤ» وهذا مـا كان طريقة غير مباشرة لرفض اقتـراح بريجينيف الأخير لي في موسكو بأن يُسمح للسوفييت بالإبقاء على 200 صاروخ حتى نهاية الأشهر الثمانية عشرة للاتفاقية. (كانت مناقشـة نظريـة تماماً، نظراً لأن الأركان المشتركة لم يكن لديها الخطة أو الوسائل للوصول إلى المجموع المقترح وهو 2400 على أية حال).

(*) الكابوكي: مسرحية شعبية يابانية يصاحبها الغناء والرقص ـ المترجم.

رد بريجينيف باتهامنا بأننا نتصلب في شروطنا. وركز غروميكو على الحجة التقليدية السوفييتية بأن حاملات الطائرات ينبغي أن تعتبر من الأسلحة الاستراتيجية. وعاود كلا الزعيمين السوفييتيين المطالبة باعتبار القوى النووية البريطانية والفرنسية ضمن المجموع المقترح 2400 ـ أي إعادة التأكيد على الطلب السوفييتي الأصلي بأن يُعطوا أفضلية عددية مقابل منصات الولايات المتحدة. وعاد بريجينيف إلى التهمة ـــ عـن حق ـ أنه نظراً للبداية المتأخرة للسوفييت، فإن الولايات المتحدة سيكون لديها أفضلية عددية في صواريخ «ميرف» حتى الثمانينات بغض النظر عن الأرقام المكتوبة.

وجد الزعماء أنفسهم فيما بعد أنهم بعيدون جداً عن التحديث الاستراتيجي. نادراً ما يجد رؤساء الدول الوقت أو الخبرة التقنية من أجل موضوع مبهم. فقد أثار بريجينيف مسألة فنية معقدة بشكل خاص: لقد سمحت اتفاقية «سالت ـ 1» بتوسيع الصوامع القائمة بنسبة 15%، وهذا يعطي الولايات المتحدة أفضلية بحسـب تقدير بريجينيف. صوامع صواريخ مينيوتمان قد صممت باتسـاع أوفر من الصوامع السوفييتية. هـذا الحجم الإضافي إذا أضيف إلى الزيادة المسمـوح بها وهي 15%، في حجم الصاروخ، سوف تعطي الولايات المتحدة «أفضلية» غير محدودة ـ وهذا يفترض أننا نستطيع زيادة حجم صواريخنا بنسبة أعلى ممـا خُصص للسوفييت. لم يتقدم بريجينيـف باقتراح محدد لمعالجة «عدم التكافؤ» المفترض هذا وبدا راضياً بالإشارة إلى تحمله من أجل السلام.

وسرعـان ما تشتت النقاش، ويعود هذا جزئياً إلـى أن بريجينيف ببساطة لم يكن يعرف ماذا يتحدث عنه. وراح كل من دوبرينين وجورجي كورنيينكو، رئيس القسم الأمريكي في وزارة الخارجية السوفييتية، يشرحـان بعض الحقائـق لرئيسهما المرتبك همساً، والتي كانت تُسمع عبـر مكبرات الصوت لدى وفدنا. وأخيـراً قام الجنـرال ميخئيل كوزلوف من هيئـة الأركان السوفييتية برسم مخطـط لبريجينيف يُبيّن أن نسبة توسيع الصواريخ بمقدار 15% كافية لخطط التحديث السوفييتية.

الحق أن بريجينيف كان لديه وجهة نظر، ولكنها لم تكن ما ظن أنه أثارها. أحكام التحديث في اتفاقية «سالـت» تعطي الولايات المتحـدة كل فرصة لتقليص الأفضلية التي يزعمهـا السوفييت، لم تكن ثمة عقبة لوضـع صاروخ أكبـر بكثير من صاروخ مينيوتمان Minuteman 3 في الصوامـع الموجودة (وإذا زدنا عدد الصوامـع إلى الحدود المسموح بهـا في اتفاقية «سالت ـ 1» كان بوسعنا أن ننتج صاروخاً ثقيلاً حقاً). كلا الاتجاهين يمكننا من مضاعفة عدد الرؤوس المحمولة على كل منصة أو تعزيز القدرة التدميرية لكل رأس حربـي، والحـق أن لدينا القدرة على القيـام بالعملين معاً. بإيجاز، لدينا القـدرة الفردية لإغلاق أية ثغرة نعتبرهـا مهمـة استراتيجياً. ومع هذا فـإن البنتاغون لم يطلب أبداً صاروخاً أثقـل من صاروخ MX، الذي يلي مينيوتمان (والذي لا يتطلب توسيع الصومعة). ولم أتحدث أنا أبداً عن تصميم لصاروخ ثقيل تقوم به وزارة الدفاع في أية إدارة متعاقبة. ومهما تفاصح البنتاغون إلا أنه قانع عملياً ببرنامج سالت ـ 1 القوي.

عـاد بريجينيـف، بعد أن صحح له مرافقوه أخطاءه، إلى الحديث عن خطة حول سيادة مشتركة نووية ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي:

عنـدي اقتراح آخر. ينبغي أن تُقنعـوا د. كيسنجر أننا سنصبح حلفاء في ميدان الأسلحة النووية، وعندئذ سيزول كل شيء، عندئذ نستطيع أن نقدم تنازلاً ونوقع اتفاقية، ليس هنا بـل في واشنطن. عندئذ لن تكون هناك مشكلـة إزاء الأسلحة النووية لأننا سنكون حلفاء وحلفاؤنا سيطمئنون أيضاً.

نحـن كنـا مصممين على تجنب أي انطبـاع بسيادة سوفييتية ـ أمريكية مشتركـة، ولو بثوب طوباوي. تفادى فورد تلميح بريجينيف قائلاً:

دعنا نقوم بذلك خطوة خطوة. نحن نتعاون في عدة ميادين من قبل ونفعل ذلك حتى في ميدان الفضاء. وهكذا فإننا لا نعرف أبداً إلى أين يمكن أن نذهب.

اقتـرح بريجينيف، بعد التراجع الكامـل الآن إلى الحواصل المشتركـة، سقفاً يتألف من 2400 منصـة إطـلاق على مدى عشر سنـوات، مع رسالة من الجانـب الأمريكي تعد بألا نزيـد أكثر من 2200 منصة قبل 1983 ـ وهو مـا يعني عملياً الاقتراح نفسه الذي عرضه عليّ في موسكو باستثناء أن التحديد الأمريكي سيكون سراً وليس علانية. أوضح فورد أن الـرأي العام لن يؤيد التفاوت، وأن الرسالة الجانبيـة لن تلزم خليفته. عرض بريجينيف اقتراحـاً بسيطـاً: «أن يبقى الرئيس فورد في السلطة لماذا ينبغي أن يرحل؟». أثارت تلك الملاحظـة هبّة أخرى مـن الهمسات في الجانـب السوفييتي فيما أخـذ غروميكو يشرح لرئيسه أن الرؤساء الأمريكيين لا يحق لهم البقاء أكثر من فترتين.

مـن أجل تحفيـز السوفييت علـى القبول بالحواصـل المتكافئة والتخلي عـن «التعويض» بالقواعـد عبر البحار، عرض فـورد التوقف عن وضع الغواصـات الحاملة للصواريخ في ميناء روتـا، أسبانيا، بعد عـام 1983. كشأن كثير من أحكام اتفاقيـة «سالت»، فإن هذا الإجـراء يمثل خططـاً أمريكية موجـودة، لأنه في عـام 1983 ستجعـل الصواريخ بعيدة المدى على غواصات بوزيدون وترايدينت القواعد المتقدمة للغواصات غير ضرورية.

أثـار بريجينيف بعد ذلـك مسألة ـ طرحت عليّ من قبل في موسكـو من قبل كورنيينكو ـ تصل إلى صميم الفجوة بين خططنا الدفاعية ووضعنا في اتفاقية «سالت»، حيث تأثرت الأخيـرة بسياساتنـا الداخلية: كيـف نستطيع الوصول إلى مستـوى 2400 منصة إطلاق بدون بناء صوامع جديدة، وهو ما كان محظوراً بموجب اتفاقية «سالت ـ 1»؟ أوضحت أن غواصـات ترايدنيت تحمـل 24 صاروخاً بدلاً من 16 على قوارب بولاريس. وهذا من شأنه

أن يوفـر أكثر من 300 صاروخ إضافـي، كما سنبني «قاذفات ب ـ 1» لنصل إلى المجموع المتفـق عليه. (كانت هـذه مجرد مناقشة تفاوضية، البرنامـج الحقيقي بعد ذلك وطيلة السنوات العشرين التالية كان أخفض بكثير).

عند هذه النقطة، نحو 9.30 مساء، طلب بريجينيف فترة راحة استمرت بعض الوقت. عرفنا فيما بعد أن السبب في ذلك خلاف نشب على الهاتف بين وزير الدفاع أندريه غريتشكو، الذي اعترض على التساهل فـي مسألة الأنظمة ذات المواقع المتقدمة، ولكن بريجينيف فرض نفوذه[3]. وجاءت لحظة الانفراج، على لسان بريجينيف:

حسنـاً، يا سيادة الرئيس، ماذا نستطيع أن نفعـل؟ أوافق تماماً على أن موقفكم الداخلي يختلـف عن موقفنا، ولكن بـودي أن أطرح أسئلة، مثل لمـاذا لا توجد درجة متساوية من الأمن.

لـذا دعنا نحل الموضـوع بهذه الطريقة ـ لقد أجرينا ثلاث مناقشات ومن الواضح أننا لا نستطيـع أن نحـل كل شيء في يومين. مـا ينبغي أن نفعله هو أن نحـاول أن نوافق مبدئياً على التالي: 2400 منصة إطلاق لكم و2400 منصة إطلاق لنا، 1320 صاروخ ميرف لكم و1320 صاروخ ميرف لنا.

طلب فورد وأنا من بريجينيف أن يؤكد بأنه لن تكون هناك رسائل جانبية، ولا عمليات تفاهم سرية ولن نحتسب القوات الحليفة. أجاب بريجينيف:

بموجـب هذا الاقتراح لن تكون ثمة حاجـة إلى رسالة، لأنه يمكن الوصول إلى السقف في أي وقـت حتى عـام 1985. كلانا سيصل إلى مستويـات 2400 و 1320 خلال هذه الفترة. وهكذا تستطيعون أن تعودوا أو تُخبروا شعبكم أنكم وصلتم إلى اتفاق على أساس المساواة الكاملة.

استُبعد الغداء الرسمي المقرر، واستمرت المحادثات مع تناول الشطائر. واستمر الاجتماع ست ساعات، حتى الساعة 12.35 ليلاً، باستثناء فترات الانقطاع كي يتمكن بريجينيف من الاتصال بموسكو.

كان فـورد والوفد الأمريكي سعداء. فقرار فـورد الأول فيما يتعلق بالحد من التسلح قد بسّط الاقتراح الأخيـر الذي كان قد قدمه نيكسون لجعله أكثر توافقاً مـع المزاج الشعبي في واشنطن. ووافق بريجينيف على الأعداد المتساوية وفقاً للمشروع الذي يلح عليه البنتاغون ضمن المستوى الذي اقترحه فورد.

لـم نقم بأي تنازل مهم. وقبل إعطاء هـذه الموافقة الأخيرة راجع فورد الأمر مع مستشاريه. ولإبطال أجهـزة الاستماع السوفييتية أخذنا سبعتنا ـ الرئيس، وهيلموت سونينفيلدت، وبرينت سكوكروفت، ووليام

هيلانـد، وجون لودال (محلل أنظمتنـا) والسفير ستويسيل، وأنا ـ نمشي فـي دوائر حول الحديقة في جو بـارد لم يكن يتصـوره أحد. قال هيلاند إن بريجينيف قد تراجع بسهولة نسبيـاً، وينبغي أن نحاول انتزاع تنـازل آخر. وفي موسكـو أعلمني بريجينيف أن الاتحاد السوفييتي قد نـوى أن يبني 180 صاروخاً من نوع ميـرف فقـط من أصل صواريخـه الثقيلة الـ 280 (SS ـ 18) وحضّنا هيلاند علـى أن نحاول تحويل هذا التنازل الفردي إلى جزء من اتفاقية «سالت».

فـي الجلسـات التي بدأت بعد ذلك بوقت قصيـر بعد العاشرة من صباح اليـوم التالي، يوم الأحد 24 تشريـن الثانـي، حاول فورد هذا. استلم الحوار غروميكـو، الذي كان يظن بلا شك أن رئيسه قد ذهب بما فيـه الكفايـة في الليلة السابقـة. كان المفاوض المثالي الـذي لا يمكن أن يقدم أي تنـازل فردي جوهري إلا بصعوبـة. وقد سعـى غروميكو، المحنك، إلى انتـزاع تنازل بالمقابل. قال إنه قـد يوافق على حد 180 صاروخـاً من نوع «ميرف» مقابل أن توافـق الولايات المتحدة على سقف مقداره 2200 منصة إطلاق حتى عام 1983.

أظهـر الحوار إلـى أي حد كان الجدال حول اتفاقيـة «سالت» نظرياً. كان غروميكـو يعرض الحد من صواريـخ «ميرف» السوفييتية بمقدار قد لا يُحتمل أن يصـل إليه الاتحاد السوفييتي عام 1985. في مقابل الحد من الصواريخ الأمريكية حتى عام 1983 والتي لم يكن لدينا خطة لها. قايضنا على مئتي صاروخ لم نكـن ننـوي أبداً أن نبنيها مقابل ألف رأس حربي (مفترضيـن أن كل صاروخ من نوع SS ـ 18يحمل عشرة رؤوس) لم يكن السوفييتيت ينوون نشرها أبداً. وقد تأكد هذا عندما سمع خبراؤنا في الشؤون السوفييتية ذوو الآذان الحـادة السمـع بريجييف يهمس في أُذن غروميكو أن اقتراحنا في النهاية كان يعكس البرنامج السوفييتي القائم.

استغـرق البحـث فـي الحد من التسلـح الكثير من الوقت بحيث لـم يعد هناك إلا فرصـة ضئيلة جداً لمناقشـة قضايا أخرى. كـرر بريجينيف الخط السياسـي السوفييتي المعتاد في الشـرق الأوسط: ينبغي أن تعـود اسرائيـل إلى حدود 1967، وأن يعود «مؤتمر جنيف» إلـى الانعقاد بأسرع وقت ممكن لتحقيق تلك الأهـداف. وكان جواب فـورد مألوفاً: وافق على الرغبة في إعادة عقد مؤتمـر جنيف في النهاية، واقترح أن يناقـش دوبرينيـن وأنا الشـروط. وكان على بريجينيف أن يعرف أن هذا يعنـي الاستمرار في أساليبنا التكتيكية وإدارتنا المنفردة لعملية السلام لمدة جولة واحدة أكثر على الأقل.

أبـدى فـورد استعـداداً أكبر تجـاه «مؤتمـر الأمن الأوروبـي». وكان قد قال فـي مباحثاتـه الأولية مع المستشـار الألماني هيلموت شميدت والرئيس الفرنسي فاليـري جيسكار ديستان في شهر ك1، إنه يؤيد مؤتمـر قمة يُعقد عـام 1975، مفترضاً أنه لا يستطيع أن يحقق تقدماً حول صيغـة تسمح بالتغيير السلمي للحدود الأوروبية.

أما قضيتا الهجرة اليهودية ومركز «الدولة الأولى بالرعاية» للاتحاد السوفييتي فقد ذُكرتا في سياق تكرار التفاهمات القائمة. ولم يشر بريجينيف مطلقاً إلى الرسالة التي سلّمها غروميكو إياي في موسكو أثناء جولتي في شهر تشرين الأول، مما عزز قناعتنا بأنها ضرورية للتدوين. وقد لخص فورد فهمه للأمور كما يلي:

لسوء الطالع أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ عندنا ذكر أرقاماً لم يوافق عليها كلانا. أريد أن أؤكد لكم أنني لم أؤكد أية أرقام، إذ لم ترد أية أرقام أثناء تبادلنا الرأي. لقد عرضنا فقط ثلاثة مبادئ. الأول، أنه لن يكون هناك تحديد للطلبات، والثاني أنه لن يكون هناك رفض إلا لأسباب أمنية؛ والثالث أنه لن يكون هناك مقاضاة لمقدمي الطلبات. ولكننا لم نفترض أي رقم معين.

أكد بريجينيف ما لخصه فورد: «لن يعاقب أحد أو يُدان أو يتعرض لأي أذى، ولن تُفرض أية ضريبة». ولكنه أكد ـ كما فعل في موسكو ـ أنه منذ حرب الشرق الأوسط عام 1973، هبط عدد المتقدمين بطلبات للهجرة إلى اسرائيل بشدة.

وفي لقاء خاص ضم بريجينيف وغروميكو ودوبرينين، والمساعد الخاص لبريجينيف من الجانب السوفييتي، وضم فورد وبرينت سكوكروفت والسفير ستويسيل وضمني من الجانب الأمريكي، عاد بريجينيف إلى مشروعه المفضل حول السيادة النووية المشتركة للقوتين العظميين. منذ رحلتي إلى موسكو لخص بريجينيف اقتراحه بأن يتضمن تعهداً من جانب القوتين العظميين بعدم استخدام الأسلحة النووية إحداهما ضد الأخرى، ويتضمن ذلك تحالفاً عملياً ضد أي طرف ثالث يستخدم الأسلحة النووية. طرح فورد بعض الأسئلة الاستيضاحية ثم أحال الموضوع على دوبرينين وعليّ من أجل استطلاع أوسع. ولم يثر أحدنا الموضوع ثانية.

كان هدفنا الأول في فلاديفوستوك أن نحافظ على علاقات الشرق ـ غرب في فترة اضطراب أمريكي داخلي شديد وهجوم على الانفراج. لم يكن لدى أي طرف أية أوهام بأن اتفاقية مبدئية تستطيع أن تخلق ما هو أكثر من سقف لسباق التسلح الذي أصبح نوعياً بصورة أساسية. ومع هذا قلنا في أنفسنا إنها كانت خطوة أولى مهمة نحو تخفيضات واتفاقيات أكثر تعقيداً. وهي قد حافظت على استمرار الحوار، تاركة الفرصة مفتوحة أمام فترة طويلة من السلام سوف تعدل أهداف الاتحاد السوفييتي بالتدريج وربما حتى طبيعة النظام السوفييتي نفسه. وكل زعيم سوف يسعى لأسبابه الخاصة إلى المحافظة على جو التعاون. وعندما افترق فورد وبريجينيف كان كلاهما على ثقة أنهما حققا هدفهما بخلق أساس جديد للعلاقات الأمريكية ـ السوفييتية[4].

نتيجة فلاديفوستوك: الانفراج تحت الضغط

في طريقنا إلى الوطن، كان وفد فورد مليئاً بالحيوية والحماسة. يستطيع الرئيس أن يثق حقاً بأنه طور الموقف الأمريكي ـ على الأقل في الوقت الحاضر ـ الذي بدا أنه أوقف النزاع بين وزارتي الخارجية والدفاع. وقد أظهرت مقارنة بين الموقفين التفاوضيين المفتوحين لكلا الجانبين أن السوفييت هم من قدموا معظم التنازلات تقريباً. ولم يقل بريجينيف أقل من ذلك عند الوداع عندما ذكر لفورد إنه فعل أقصى ما في وسعه كي يُمكن الرئيس من «العودة إلى بلاده وقد حقق إنجازات لا تقل أهمية عن تلك الإنجازات، التي عاد بها نيكسون».

وقد عكس رون نيسين الجو الشديد الابتهاج في «طائرة سلاح الجو رقم واحد»، وهو السكرتير الصحفي لفورد، عندما قال إن رئيسه حقق في ثلاثة أشهر من المفاوضات ما عجز عنه نيكسون في خمس سنوات. ولكنه كان أحد تلك البيانات السخيفة التي يحرر السكرتيرون الصحفيون أنفسهم منها عندما يؤمنون بادعائهم بأن موقف رئيسهم في التاريخ قد تقرر (أو حتى تأثر) بتصريحاتهم. لم أكن في وضع يجعلني أكبح جماح ابتهاج نيسين لأنني كنت آنذاك في طريقي إلى الصين لأصارح القادة الصينيين.

كان ابتهاجنا في غير محله. ذلك أن الخطوط الظاهرة للجدل حول الانفراج في واشنطن كانت تصاغ من قبل رجال ونساء كرسوا أنفسهم لعدم تعديل قناعتهم بأن الاتفاقية مع السوفييت كانت أكثر خطراً من الجمود حتى بعد القمة الناجحة. ولأنهم صمموا على إنهاء الانفراج، فإنهم كانوا يعارضون الاتفاقية في حد ذاتها أكثر مما يعارضون ما تحتويه.

ما إن عاد فورد إلى واشنطن حتى جوبه بهجوم التآلف نفسه الذي كان يعارض وينتقد بشدة سياسة الشرق ـ غرب قبل القمة. وصف الليبراليون «فلاديفوستوك» بأنها كانت بناء للأسلحة بدلاً من الحد منها. واعترضوا على سقف أعلى من البرنامج القائم. أما «اتحاد مراقبة التسلح» فقد انتقد «أوجه القصور الشديدة»[5]، أما رائد نظرية الحد من التسلح وممارسته، جورج راثجينز فقد أخبر اثنين من مساعدي أنه كان يفضل الجمود على الاتفاقية التي تم التوصل إليها في فلاديفوستوك[6]. أما صحيفة «نيويورك تايمز» فقد نشرت افتتاحية الاذاعة في 29 ت2 تفيد بأنه «لا يوجد إلا سبيل ضئيل للابتهاج باتفاقية فلاديفوستوك، وأثارت كثيراً من التساؤلات التي تتطلب كما ادّعت مراقبة شديدة من الكونغرس». كان اقتراح «التايمز»، الذي هو في حقيقته مضيعة للوقت، العودة إلى مائدة «المؤتمر للسعي من أجل حد الأسلحة ذي مغزى أكبر»[7]. ما أرادته «التايمز» في الواقع هو جر «اتفاقية سالت» إلى حملة انتخابية رئاسية أخرى. أما الكاتب الوقور جيميس ريستون، فقد ذكر في صحيفة «التايمز» بعد أسبوع أن تفاصيل الاتفاقية «ما تزال بالغة الغموض» وأن «الوقائع المستخلصة تثير حتى الآن بعض الأسئلة المثيرة للاضطراب»[8].

«الواشنطن بوست» التي بدت أقل عدوانية في البداية، لم تلبث أن سقطت في أجواء التشكيك السائدة بعد بضعة أيام تريد اتهام المحافظين بأن الاتفاقية «هددت» قوات أمريكا الاستراتيجية لأنها سمحت للسوفييت بعدد متزايد من الرؤوس الحربية[9]. صحيفة «البوست» بقيت صامتة لأنها وصلت في طريق التحليل إلى نتيجة بأن هذا التحليل غير صحيح. سنظل لعقود نمتلك رؤوساً حربية أكثر من السوفييت وفي حين أن ثلث قواتنا الاستراتيجية فقط مرابطة على الأرض فإن 90% من قوات السوفييت مرابطة أرضاً.

من دواعي التناقض أن نجاح فورد في فلاديفوستوك حوّل الجدل إزاء الحد من التسلح إلى موضوع التخفيضات ــ الذي كان حتى الآن موضوعاً هامشياً نسبياً. واتخذ زمام المبادرة كالعادة جاكسون وجماعته. الآن وقد تحقق موضوع الأعداد المتساوية الذي كان مطلوباً بإلحاح، أصبحت التخفيضات هي العبارة الطنانة، وكان لهذه عنصران: بعض المدافعين التقليديين عن الحد من التسلح كانوا يضغطون من أجل تخفيض الأعداد على أساس أن أي تخفيض للأسلحة النووية يُقلص من تهديد البشرية. وبصراحة هذا ليس بالضرورة صحيحاً. إذ بالنسبة للمستوى الموجود من الرؤوس الحربية حتى تخفيضه بنسبة 50% لن يؤثر كثيراً على قدرة كلا الطرفين على تدمير الحياة المدنية لخصمه، وما لم يترافق هذا التخفيض بقيود أخرى، يمكن أن تعزز فعلاً قوة الضربة الأولى عن طريق تخفيض عدد الأهداف وجعل الهجوم أكثر حسباناً.

ناشد جاكسون هذه المجموعة التي يغلب عليها الطابع الليبرالي باقتراح تخفيض سقف فلاديفوستوك إلى 1700. وكان يطلب أن يخفض السوفييت قواتهم الاستراتيجية بمقدار الثلث في مقابل تخفيض أقل من 10%، في وقت كان هو وحلفاؤه يخفضون التجارة والقروض والتي يمكن أن تعتبر بمثابة حوافز للسوفييت. إن معارضي اتفاقية «سالت» لشعورهم بعدم التناسب العقلاني لهذه المقاربة، جاؤوا الآن بنسخة معدلة أكثر سفسطة لخطة تخفيض تؤكد التوازن المتكافئ.

كان هذا أفضل عقلانياً ولكنه بالدرجة ذاتها تقريباً غير قابل للتحقيق على المدى القصير. إذ لمّا كانت الصواريخ السوفييتية أكبر من صواريخنا فإن كل واحد من صواريخهم قادر على حمل شحنة متفجرة أكبر. وعندما نُحدد المساواة لتحقيق توازن إجمالي في عدد الرؤوس الحربية فإنَّ الوصول إلى طريقٍ مسدود أمراً مؤكداً. نحن بالطبع نستطيع أن نغلق فجوة عدد الرؤوس الحربية باستبدال صواريخ مينيوتمان ــ 3 بصواريخ MX، المسموح بها تحت سقوف اتفاق فلايفوستوك، وهذا سيجعل القوات الاستراتيجية السوفييتية أكثر هشاشة بكثير من قواتنا. لقد عرضت التحدي كما يلي في 7 ت1 في اجتماع لمجلس الأمن القومي.

الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها أن نجعل السوفييت يخفضون (تسليحهم) بشدة أن

نعيـق التصديق علـى المفاوضات ونشرع ببرنامج أمريكي ضخـم. عليهم أن يرونا نسير قُدماً وليس يسمعوننا نتكلم فقط.

ولكن جاكسون والمنتقدين الآخرين كانوا يعرفون أن الكونغرس لا يمكن أن يوافق، والحق أن أية إدارة لم تحاول ذلك.

وهكـذا عمليـاً فإن اقتـراح التخفيض وصل إلـى أن يضع السسوفييت بيـن خيارين كانوا مضطريـن لرفضهمـا. كان عليهم إما أن يخفضوا عدد صواريخهـم مما يعطينا أفضلية عددية كبيرة، أو أن يُعيدوا تصميم قوتهم الاستراتيجية بكاملها لتعكس تصميمنا. جوهر الصفقـة الـذي اقترح كان الحريـة لبرامجنا الأمريكيـة القائمة والقيـود الشديدة على برامـج السوفييت. وحتـى بالنسبة لضمان جدوى التوازن الإجمالـي، أخفق الناقدون في شـرح لماذا قد لا تبرهـن اتفاقية فلاديفوستوك، التي أوجدت قاعـدة التكافؤ، على أنها خطـوة أولى مفيدة في ذلك الاتجاه. في مسيـرة المفاوضات توصلنا الى: لا ضغوط على البرامج السوفييتية ولا زيادة كبيرة في برامجنا.

لـم تغفل الإدارة عـن الأهمية بعيدة المدى للتكافؤ الإجمالي. ولـو أن جاكسون أظهر أقل رغبـة ممكنة في التعاون، لكنا تابعنا المفاوضات عندمـا تأسست القاعدة. ولم يكن من الضروري أن نخرب اتفاقية فلاديفوستوك لتحقيق رغباته.

أصبحـت المماطلـة هـي الاستراتيجيـة الجديـدة للمنتقدين. إحـدى وسائـل إعاقة تنفيـذ اتفاقية فلاديفوستـوك كانـت المطالبة بإدخـال القاذفة السوفييتيـة متوسطة المدى التي تفـوق سرعتها سرعة الصـوت ـ والتي نطلق عليها في حلف الناتـو باكفاير ـ في عداد المجموع السوفييتي. وذلك على افتراض أنهـا إذا أعيد تموينها بالوقود جواً فإنهـا تستطيع أن تصل إلى الولايات المتحدة من الأراضي السوفييتية (كمـا تستطيع ذلـك أية طائرة يعاد تموينها بالوقـود جواً). في آخر اجتماع لمجلـس الأمن القومي في 7 ت1، وصـف وزير الدفـاع جيمس شليسنجر والبنتاغون طائرة الباكفاير بأنهـا سلاح استراتيجي هامشي يمكن التحدث عنها فقط لمجابهة المطلب السوفييتي بالتعويض عن قواعدنا عبر البحار. وعندما يُسقط السوفييت مطلبهم بـ «التعويض» سنجد أنفسنا مضطرين إلى تحويل المساومة إلى موقف شد وجذب.

وإذ وجدنـا أنفسنـا عرضـة للهجوم مـن منتقدينا المألوفيـن، وكذلك من قبل من يعتبـرون أنفسهم مدافعيـن عـن الحد من التسلـح، وكنا نتوقع أن يكونـوا حلفاءنا، كان فورد وأنا نراقـب بأسى كيف تتمزق اتفاقيـة فلاديفوستوك أمام أعيننا. وأرسل شليسنجر برقيـة ساخنة إلى طائرة سلاح الجو رقم 1، يهنئ فـورد على المفاوضـات. ولكن ما إن دخل جاكسـون المعمعة حتى صمت شليسنجـر. وفي مجلس الشيوخ تبنـى كل من إدوارد كينيدي وولتر مونديل، وتشارلز ماتياس قـراراً بتأييد اتفاقية فلاديفوستوك ولكنهم

أرفقـوا ذلك باقتـراح لإجراء تخفيضات مبكرة متفاوض عليها ـ ولكن الطريقـة الوحيدة للحصول على تخفيضـات إضافية من شأنها أن تهدد بناء قواتنا الاستراتيجية ـ كما فعل فورد في فلاديفوستوك وفعلت أنـا فـي موسكو (وما أنجزه رونالد ريغان فيما بعد). وفي إجابة عن سؤال في مؤتمر صحفي حول رد فعلي للضغـط من أجل مزيد من التخفيضات، قلت: «الطريقـة الوحيدة التي نستطيع بها أن نحقق أرقاماً أدنى بصورة مقبولة أن نشرع ببناء قواتنا الاستراتيجية بصورة درامية كي نخلق حافزاً لدى الطرف الآخر كي يخفض الأرقام»[10]. المشكلة الداخلية التي كان يواجهها فورد هي أن الشيوخ الذين يؤيدون فلاديفوستوك كانوا عموماً مؤيدين لتخفيض الميزانية الدفاعية، في حين أن من يؤيدون زيادة الميزانية الدفاعية كانوا يعارضون اتفاقية فلاديفوستوك.

ومـع استمـرار الجدل طويلاً، فإن تأثيـره التراكمي حوّل فلاديفوستوك مـن حافز لتحسين العلاقات الأمريكية ـ السوفييتية إلى عقبة أخرى أمامهم. في فلاديفوستوك دعا فورد بريجينيف إلى زيارة الولايات المتحـدة عـام 1975 من أجل توقيع الاتفاقية الجديدة. ولقد أصبـح واضحاً على الفور أن هذه الزيارة لن تتم وأن اتفاقية «سالت» برمتها كانت تترنح وربما تسقط.

إذا مـا تحقـق ذلـك لا بد أنه سيكـون صعباً بشـكل خاص بالنسبة إلـى بريجينيف الـذي قدم الكثير مـن التنـازلات من أجل أن يعطي حافـزاً لتقدم العلاقـات السوفييتية ـ الأمريكية. لا شـك أن الكثير من المستشاريـن فـي موسكو الذيـن عارضوا هـذه التنازلات فـي فلاديفوستوك يذكرونـه الآن بتحذيراتهم المبكـرة. ولـم نعلم حتى وقت متأخر، أنه في هذه اللحظة كان بريجينيف في حالة نقاهة من وعكة صحية أصابته وهو في طريقه إلى منغوليا من فلاديفوستوك أضعفت أكثر من قدرته على التحكم في المباحثات التي ستجري حتماً في موسكو.

الهجرة اليهودية وانهيار الاتفاقية التجارية

مع معارضي سياستنا الخاصة بالتقارب ما بين الشرق والغرب وسعيهم إلى إفراغ اتفاقية «سالت» من مضمونها، باتت التجارة هدفهم التالي. ففي 3 كانون الأول، شهدت أمام اللجنة المالية في مجلس الشيوخ دفاعاً عن اتفاقية MFN. ولم نكن قد كشفنا أمام الجمهور الرسالة التي سلمها غروميكو إلي بشأن تعديل جاكسون فانيك.

لـدى تحويـل رسالة غروميكو إلى فورد فـي 27 ت1، حذرت من «خطر غير قليل» مـن أن تنشر رسالة غروميكو ـ مع أنه وعد ألا يستفيد منها قبل أن أعود إلى واشنطن في حوالي 9 ت2. ولهذا:

> ينبغـي أن نخطـط لكي نفسح المجال أمـام الشيوخ الثلاثة بعد رحلتـي كي نناقش معهم كيف نتصرف الآن في ضوء الرسالة السوفييتية أمامنا خياران: (1) أن نستمر في تبادل الرسائل وننتظر ما سينجم عنها عملياً، (2) أو أن نلغي المجهود كله.

لـم يجـر اللقاء مع الشيـوخ، والإخفاق فـي ترتيبه كان خطأ كبيـراً. وفيما بعدت جـرت جميع أشكال التحليـلات المعقدة التي تعزو هذا الخطأ غير المقصود إلى افتقار متأصل للصدق أو محاولة متعمدة ما لتضليل الكونغرس. ويمكن أن يوجد تفسير أفضل مع مرور الوقت.

عندمـا ناولني غروميكـو الرسالة كنت لا أستطيع العودة إلى واشنطن إلا بعـد أسبوعين، إذ كان عليّ أن أتوقـف في الهند، وبنغلادش، وباكستان وأفغانستـان، وايران، ورومانيا ويوغسلافيا، وإيطاليا، ومصر والعربية السعودية، والأردن وسوريا، واسرائيل وتونس. وكان فورد يسهم في حملة انتخابات الكونغرس قبل أسبوع من ظهور النتيجة حيث انُتخب كونغرس يهيمن عليه ماكفرن، مما يعني مزيداً من الصعوبات للرئيس الجديد. كان هناك أسبوع واحد ما بين عودتي ومغادرة فورد إلى طوكيو، وسيئول، وفلاديفوستوك.

كانت هناك عقبة جزئية أمام الإفشاء عن الموضوع. فالكونغرس كان في عطلة، والشيوخ كانوا خارج المدينـة، والاتصـال الداخلي كان لا بد أن يتم مع مجموعـة جاكسون، وهو اتصال لم نكن نتحمس له مثل عـدم تحمسنا إلى موعد مع طبيب أسنان لا يستعمـل المخدر. وتعزز افتقارنا إلى الشعور بالإلحاح عندما كتـب بريجينيـف في 5 ت2 إلى فورد ليشكـره على إرسالي إلـى موسكو، مشيراً إلى المرونـة في «اتفاقية سالت» دون أن يذكر الجدل حول رسالة غروميكو.

لهذا اخترنا أن ننتظر نتائج فلاديفوستوك، حيث لن يشير لا بريجيف ولا غروميكو إلى الرسالة. عند عودتنـا إلى واشنطـن كان علينا أن ندافع عن اتفـاق فلاديفوستوك ضد هجوم آخر مـن جاكسون. وقرر فـورد أنه لما كان بريجينيف لـم يشر إلى رسالة غروميكو، سيكون من الأفضل الاستشهاد بمضمونها دون الإشارة اليها.

> لخص بياني أمام لجنة مجلس الشيوخ المالية عملياً رسالة غروميكو على الوجه التالي:
>
> لقد اتضح لنا بجلاء أن التفسيرات السوفييتية كانت تتطبق على تحديد المعايير ولا تمثل التزامـاً بالأعـداد. وإذا ما استخدم أي رقم فيما يتعلق بالهجرة السوفييتية فسيكون هذا مـن مسؤوليتنا بالكامـل: وهذا يعني أن الحكومة السوفييتية لن تكـون مسؤولة أو ملتزمة بأي رقم. وهذه النقطة تـم توضيحها بجلاء لأعضاء الكونغرس الذين تعاملنا معهم[11].
>
> لدهشتـي رحب جاكسون بذلك البيان لأنه يسير أبعد «مما أذعناه سابقاً على الملأ». ولم يعـد مـن المهم إذا مـا كان يقصد هذا كعلامة مـن علامات الاسترضـاء أو إذا ما كان غاضبـاً إزاء ما كان يمكن أن يفعله. لقد قدم لجاكسون وقواه أخيراً الشعرة التي قصمت ظهر البعير. ووسيلتهم إليه كان التعديل (الذي قدمه السيناتور إدلاي ستيفسون الثالث) للتوسيـع السنـوي لسلطة الرئيس لضمـان قروض «مصرف التصديـر والاستيراد». لقد بيّـن للاتحاد السوفييتي ضرورة تطبيق قيود خاصة بالنسبة لها. فقروض بنك التصدير

والاستيـراد مقيـدة بحـدود 75 مليـون دولار في السنـة، أو 300 مليـون دولار لفترة أربع سنـوات. والقروض الإضافية تحتاج إلى موافقة الكونغرس، والقروض الخاصة بالتعدين والموارد الطبيعية ممنوعة تماماً.

كان وضـع الاتحاد السوفييتـي الآن أسوأ فيما يتعلق بالتجارة من فتـرة ما قبل الانفراج، أو قانـون التجـارة. السعي إلى وضع متكافـئ قد حوله الكونغرس إلى نظـام للتفرقة (أو التمييـز) المشروعة. وضـع الدولة الأكثر رعاية لا يمكن ضمانه إلا بتنازل رئاسي عرضة لتجديد سنوي. مما يجعل الاتحاد السوفييتي الدولة الوحيدة الخاضعة لمثل هذه القيود. وكان التجديد الأول موعده في شهر نيسان 1976، الذي اختير لإعطاء جاكسون أكبر قدر من التشجيع في المنافسات الرئاسية القادمة الأولية.

بالنسبـة للسوفييت لم يكن هذا يحقق لهم وضعـاً مفيداً: إذ إنَّ الهجرة إذا زادت فسوف يدعـي جاكسـون المصداقية فـي إشارته إلـى أن الضغط يعطي نتيجـة، وإذا لم تتحقق النسبـة التي حددها جاكسـون فسيُتهم الزعماء السوفييت بخـرق تأكيدات لم يقدموها فعـلاً من قبل. وبوضع قيود على قروض «مصرف الاستيراد والتصدير» لأول مرة لم يعد هناك الآن أي جانب من جوانب العلاقة الأمريكية ـ السوفييتية يخلو من الهجوم من ذلك التحالف الغريب والعاطفي ما بين النشطاء الليبراليين والمحافظين.

وضـع الدولة الأكثر رعاية الذي كان المقصود منه أن يكون حافزاً لسلوك دولي سوفييتي مسـؤول والذي أوقفـه نيكسون حتى يحصل تقـدم على محور برلين، وفيتنـام، واتفاقية «سالـت» ودفع قروض الإعارة والتأجير ـ رغم الاحتجاجات الليبرالية المتواصلة ـ أصبح الآن شرطاً لإحداث تغييرات في الممارسات السوفييتية الداخلية. ومحاولة إحداث توازن بيـن نظاميـن استراتيجيين قائـم على برنامج الأسلحـة الأمريكية. كنـا نطالب بإلحاح بتنـازلات ولكننا كنا محروميـن في الوقت نفسه من قدرة تقديم تعويض. كان الاتفاق مع الولايات المتحدة ينبغي أن يعتبر مكافأة لهم.

فـي 18 ك1 عرض السوفييت قيود هـذه المسيرة. ونشروا رسالـة غروميكو عن صندوق النقـد في 26 ت1 مع بيـان يؤكد على أن أية شروط جديدة تعاكـس اتفاقية التجارة لعام 1972 التـي جعلت مـن اتفاقية الدولة الأكثـر رعاية مشروطة فقط بتسويـة دين الإعارة والتأجيـر. ومـع أنه بات من الواضـح الآن أن أرقـام جاكسون عن الهجـرة كانت فارغة المحتـوى، فـإن الكونغرس مع هذا عمـل على تحرير «قانون التجـارة» لعام 1974. وعمد جاكسون نفسه إلى إقفال المناقشة حول الجدل. أي وضع قيود على خطب الشيوخ.

فـات الوقـت لإنقاذ اتفاق الدولة الأكثـر رعاية أو الهجرة اليهودية عـن طريق المناورات البرلمانية. وفي 25 ك1 وجه بريجينيف رسالة شخصية إلى فورد، وكانت هذه الأولى من نوعها منذ فلاديفستوك. بعصبية واكتئاب رفض بريجينيف مرة أخرى تشريع الكونغرس الذي يربط التجارة ما بين الشرق والغرب بالهجرة اليهودية. لن يقبل الاتحاد السوفييتي أي تنـازل أو أية شروط سوى التسوية التي تمت حـول الإعارة والتأجير. ولكن بريجينيف كان حريصاً على التأكيد على أن عدم الاتفاق على التجارة لن يؤثر على الجوانب الأخرى لعلاقة الشرق بالغرب:

سوف نقوم من جانبنا بكل ما هو ضروري لدفع علاقاتنا إلى الأمام في مناطق كانت حتى الآن موضـع اهتمامنـا الشديد وكرس كلانـا من أجلها الكثير من الجهـود. وهذه تنطبق علـى علاقتنا الثنائية السوفييتية الأمريكية وعلى المشـكلات الدولية التي تمس مصالح بلدينا.

وانتهـت الرسالة بنـداء حزين يطلب من فـورد أن يمنح القادة السوفييـت نعمة «آرائكم لتحسين الوضع القائم».

لـم يكن لدى فورد الكثير ليقوله. فقانون التجـارة سوف يتوقف سريعاً، واتفاقية «سالت» فريسـة مساومة حول مسائل فنية لا حل لهـا، وفي النهاية ستكون موضع مشاكسة مريرة في الكونغرس بشأن المصادقة عليها. الأثر الوحيد الباقي لهذه الرابطة هو «مؤتمر الأمن الأوروبي»، والسبب الرئيس لنجاته من النقد أن نقادنا لم يأخذوه بعد على محمل الجد ـ ومع هذا عندما يقترب موعد إقراره بعد ستة أشهر فيستعرض للانتقاد الشديد أيضاً.

أجّـل فورد الرد على بريجينيف حتى يتجـاوز مشروع قانون التجارة تحدي الكونغرس في النهايـة. وفي 3 كانون الثانـي (يناير) وقع قانون التجارة لعـام 1974 معتبراً إياه» جانباً مهمـاً مـن علاقتنا التجارية والشاملة مـع البلدان الشيوعية «وعبر فـي الوقت نفسه عن «تحفظاته تجاه الحكمة من اللغة التشريعية التي لا تبدو إلا معارضة تمييزية». حاولت أن أقنـع دوبرينين بأنـه ينبغي على الاتحاد السوفييتي أن يُرجـئ الجدل حول الشروط حتى مراجعـة الكونغرس السنوية الأولى «للدولة الأكثر رعايـة» MNF المقررة لمدة 18 شهراً من الآن.

كان الطلـب غيـر ذي جدوى. في 10 ك2 سلم دوبرينين رسمياً مذكـرة ترفض الديون ومركز «الدولة الأكثـر رعايـة» وفقـاً للشروط التي وضعهـا الكونغرس. وضاعـت الآن العناصر الأساسيـة لاستراتيجية الارتبـاط التـي نقوم بها. ولكن لمـا كانت التوترات ما بين الشـرق والغرب قد أصبحـت أكثر توقعاً كانت

هنـاك حاجـة لتوحيد الصفوف في البـلاد. وهكذا، وعلى الرغـم من كل ما جرى سابقـاً، مددت غصن الزيتون إلى الكونغرس في مؤتمر صحفي في 14 ك2، أحضّ فيها على تعاضد الحزبين في وجه العواصف التي ستهب علينا قريباً:

> نريـد أن نوضح أنـه لا يوجد خلاف حول الأهداف. اختلفنا مع بعض أعضاء الكونغرس حـول أساليـب تحقيـق هذه الأهـداف ـ عـدم التوافق هذا صـار الآن جزاً مـن تاريخنا التشريعي[12].
>
> وبقـدر ماتكـون الإدارة معنية فإنهـا ستتابع الأهداف التي حددتها بـروح من التعاون مع الكونغرس.
>
> بهـذه الروح حـذرت السوفييت من رفض قانـون التجارة كمقدمة لزيـادة حدة التوترات الدولية:
>
> ... سوف تقاوم الولايات المتحدة بتصميم بالغ وكشعب واحد.
>
> نحن لا نتوقع أن يحدث هذا، طالما أن الولايات المتحدة معنية فسوف نستمر في سياسة تخفيـف حـدة التوترات وتحسيـن العلاقات التي تـؤدي إلى سلامٍ مستقـر أو السعي إلى تحسينها[13].

ولكـن كنـت أعلم جيـداً أن العلاقات الأمريكية ــ السوفييتية تتجـه نحو الهشاشة تحـت تأثير حملة إيديولوجيـة عنيفة تجري بدون اعتبار مناسب للنتائـج الدولية بعيدة المدى. كان لدى نقادنا غاية عندما أكـدوا على الحاجة إلى بنـاء سياستنا بصورة أكمل وفقـاً للمعتقدات التقليدية للشعـب الأمريكي. ونحن رحبنـا بضغوطهم من أجل تعزيز الدفاعـات الأمريكية. ولكن كثيرين منهم اختـاروا التأكيد على آرائهم كتحـد أيديولوجي دون فهم أو تعاطف مع المشـكلات التي يواجهها رئيس غير منتخب في أعقاب فضيحة ووترغيـت، بالإضافة إلى كونغرس معاد يتزعمه جماعة ماك غفـرن. إنَّ ما يجعل تحديهم للسوفييت غير ملائـم بشكل خاص أنه جـاء في نهاية فترة ضغط سوفييتي شديد، كما أخبـرت فورد في اجتماع للمكتب البيضاوي في 6ك2:

لقـد فجرنـا أحد حلفائهم إلى فتات ولم يفعلوا شيئاً، هدّأنا أوروبـا، كانوا هادئين في الشرق الأوسط ــ غيـر متعاونين ولكنهم هادئـون. صدّدنا السوفييت عن قمة 1973 حول الشـرق الأوسط. ونزعنا مخلب اليسار في أوروبا ومجادلتهم بأن الصداقة مع أمريكا تشكل خطراً على تراخي التوترات.

والشـيء نفسـه في الولايات المتحدة. اليسار (محارب موسكـو) الآن، ولكن إذا تركنا الانفراج يفشل فسينحرفون إلى اليسار ثانية.

وفـي 7 ك2، قبل ثلاثة أيـام من مذكرة الرفض السوفييتية لشروط قانـون التجارة، تنبأت أمام فورد بما يلي:

> السوفييت سيحافظون على الانفراج لأسباب سياسية، ولكن ضغطنا عليهم قد ولى. هذه المشاريـع الاقتصادية قد غرست كُلاباتنا فيهم لمدة عشر سنوات. الصينيون سيكونون أقل فزعاً الآن، وسيكون لنا مع السوفييت وقت أصعب.
>
> هـذا ما حدث. أبطـأ الكرملين الهجـرة اليهودية إلى حـد هزيل. وانتقلـت علاقاتنا مع الاتحـاد السوفييتي إلى المنطقة الرمادية ـ ليست علاقة مواجهة على وجه الدقة ولكنها ليست علاقة تعاون أيضاً. وقد شهدت نهاية شهر ك1 زيارة وفد سوفييتي رفيع إلى فيتنام وزيادة ملحوظة في الإمدادات العسكرية السوفييتية (انظر الفصل 15). وبدأ في الوقت نفسـه برنامج تسليـح سوفييتي واسع للقوات الشيوعية فـي أنغولا (انظر الفصل 26) هل كانت مخططة دوماً، أم استُحثّت جزئياً تحت تأثير سياستنا الداخلية؟.

تعديل جاكسون ـ فانيك قدم هدفاً مفيداً عندما طرح لأول مرة، بانتزاعه من موسكو تعريفاً أكثر دقة لإجـراءات الهجرة أكثر مما كان موجـوداً سابقاً. ولكن عندما تجاوز الكونغرس هذه الإنجازات المفيدة لتفسير التأكيدات الروسية غير الرسمية إلى تشريع دائم ومراجعة سنوية وقعت الواقعة.

لو أن السيناتور والإدارة وجدا طريقة ما للتعاون، لكان من السهل نسبياً زيادة الهجرة اليهودية لبضع سنـوات قليلـة بمعدل سنوي مقداره 45 ألفاً، وهو ما وافق عليه غروميكو، وربما 50 ألفاً لأن فورد كان يظن أنـه سمـع بريجينيف ذات مرة يذكر هذا الرقـم. بالعمل كما لو أن المُشرّعيـن الأمريكيين يستطيعون أن يفرضـوا معـدلاً أعلى بالأمر، بيد أن جاكسـون وزملاءه باتوا ضحايا تشدقهـم. وأعطوا حوافز للسوفييت للتشدد في مناطق أخرى.

عمليـاً كان السيناتـور وجمهـور ناخبيـه كل منهما رهينة للآخـر. مع الأمل بدخول حملـة الانتخابات الرئاسيـة عـام 1976 لم يعـد جاكسون يجرؤ علـى الانحراف عن المجـرى الذي رسمـه، ومؤيدوه وسط الجماعـة اليهودية. بدأ كثير منهم يشعرون بالقلق (وذكروا لي ذلك أحياناً) لأنهم لا يستطيعون الانفكاك عن بطلهم وربما حاميهم إذا خرجت عملية السلام في الشرق الأوسط التي تقودها أمريكا من اليد، وعلى الأقل من وجهة نظرهم.

حتـى جاكسـون يبدو أن لديـه أفكاراً أخرى. لو صـدق دوبرينين فإن السيناتور دعـاه إلى الإفطار في منزله في شهر تموز 1975 وأدلى باعتراف مهم:

زعماء الكونغرس، وهو من بينهم، قد توصلوا إلى انطباع زائف بأن موسكو سوف تتساهل في النهاية بشأن الهجرة السوفييتية إذا ظلوا يضغطون وفي النهاية، بات خطأهم واضحاً، ولكن آنذاك كانت العواطف مثقلة بحيث فات أوان الوصول إلى تسوية. والطريق المسدود الذي وصلوا إليه لم يكن مفيداً لأحد[14].

ولو فهم دوبرينين جاكسون فهماً صحيحاً، لكان ضمن السيناتور ما كنت أردده دوماً. وهو أننا حلفاء طبيعيون ولسنا أعداء:

مقاربته مع الاتحاد السوفييتي لا تختلف مطلقاً عن مقاربة الرئيس نيكسون وفورد. ولكن كلا الزعيمين كان عليه أن يلعب بالسياسة فمع كونه صادقاً في قول الأشياء والتي وافقت عليها الإدارتان جوهرياً، فإن وجهة نظرهما تظهر من خلال الأفعال أكثر من الأقوال... قال إنه يؤيد تحسن العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية ومع هذا فهو كعضو في المعارضة عليه أن ينتقد أحياناً الإدارة كمسألة تاكتيكية وليس استراتيجية[15].

أية مهمات كبيرة كان يمكن أن تتحقق لو أن جاكسون عمل وفق وجهة النظر هذه عندما كان ما يزال هناك فسحة من الوقت.

ملاحظة أخيرة

لا أستطيع أن أنهي هذا الفصل بدون كلمة شخصية عن سكوب جاكسون. بالنسبة للمجابهات التي وصفت هنا، كان من نوع الخصم الدائم. أما فيما يتعلق بإسهامه الكامل في الأمن القومي للولايات المتحدة، سأتذكره دوماً كشخص متطور ساعد على الحفاظ على دفاعات أمريكا أثناء وقت يائس. بعد سبع سنوات على الأحداث الموصوفة هنا، قامت جين كيركباتريك بعملية مصالحة ما بيني وبين السيناتور سأظل ممتناً لها كثيراً. قبل وقت قصير من وفاته المبكرة، نصح جاكسون الرئيس ريغان أن يعينني رئيساً «للجنة الحزبين الوطنية في أمريكا الوسطى». وأولاني نائب الرئيس جورج بوش شرفاً عظيماً بأخذي إلى سياتيل في أيلول عام 1983 كواحد من أعضاء الوفد الرسمي للتعبير عن احترام الأمة أمام قداس السيناتور.